إنما الميت ...

قصة بقلم شريف الراس

غداً ستموت أمي .

ليس في بلدتنا فرقة تعزف الموسيقى مع الموكب .

عندما انفلق الفجر أيقظني أحد أخوتي . كان كالمذعور ، في البيت جنيات يرقصن وعفريت كالح يصعق . أو ربما كان لص قد دخل البيت ليسرق . قال :

– قم ، أمك تريدك .

قمت ، لم أتكلم . ومن النافذه الشرقية تسللت حفنة من أشعة حمراء ، نور الفجر الباهت ، وفي الزاوية الأخرى من الغرفة أنين . أمي على فراشها تتمتم باسمي وحولها اخوتي المديدون يبكون باصفرار شاحب . حاولت تقبيل يدها :

– أمي . أمي . ها أنذا بين يديك .

كانت تتمتم باسمي غائمة . ومن باب الغرفه المقابلة ارتسمَ على الأرض شكل أنيق الأضلاع لنور كهربائي . يظهر أن أبي هناك يقرأ ، يقرأ القرآن . ولكن لم لا يرفع من صوته على عادته ؟ لا تشهق بدمعك إذ لم يعد هناك من متسع لحياة .

أصفر شاحب ، وأحمر ، وغيوم عجيبة اللون والشكل ، عميقة الرقة والكراهية ، وسياط داكنة في رخاوتها ، وشجرة تنفجر . هل ..... ؟ وحرقة عجيبة في صدغي . أسرعت إلى علبة اللفائف ثم هربت . لا أريد أن أشهد النهاية التي ليس لها بداية . وهناك ، في البعيد ارتميت على كومة من حصيد القمح جانب البيدر أنظر الى الشرق ، إلى الاشعة الرطبة . وأشعلت اللفافة الأولى . كل شيء هادىء . كيف سأقول لك الوداع يا امي وهل بعد وداعنا من لقاء ؟ أين ومتى ؟ كل شيء هادىء . ومرّ فلاح على حماره يقصد السوق . ما أضيع الانسان ... كيف يكون الوداع ؟ لا أعرف ، وحبيب بين يديك يريد بلداً بعيداً ، لوعة الفراق الذي تأمل بلقاء بعده . ثم إنك لا تشبع بأمل اللقاء البعيد ، ربما بعد عام ، أكتب إلي مطولاً وداعاً . أبرق إلي ساعة وصولك ، اغرقني بالرسوم . الرسوم . وما زلت أنظر إلى الأشعة الرطبة . حاولت جاهداً ان أرسم أمي وهي بين أبنائها ترتع . ولكن « ايها الكافر ، كيف تقبل أن يرى المصور وجه امك ؟ » وقد يتلو ذلك صفعة ، من التقاليد .

ومرة ، هذه التقاليد الخشبية ، اصطحبت معي آلة تصوير الى المنزل :

أمي قفي هنا في ضوء الشمس ، أريد ان اسجل لك صوراً .

حطموا لي الالة . هذه التقاليد الخشبية . سجون من خشب نخرتـه الحشرات . وجلسنا ذات ليلة نسمر ، وأخذت أصورها بقلمي . قلت سوف أتحدى بفني هذا آلهة اليونان ، وان يكون في مجموعة صور الملكة البزابيت صورة تضاهي هذه التي ارسمها لك الآن . فاذا بها ، على الورقة البيضاء وبالقلم الأسود ، مزورّة تنظر إلى طرف شزراً ، وفي فمها يبوسة وخطوط متكسرة وكل شيء جامد ، خشب ، ربما كنت قد رسمت ما بيني وبينها ولم ارسمها هي .

وعلى البيدر المجاور أخذ حيلان يدور . لقد عادت الحركة مع الشمس الى الأرض . وهناك في الغرفة التي هربت منها ، ضياء من النافذة الشرقية ، كئيب . مخضب براتحة شاحبة رطبة مريضة . قالوا لي فيما بعد إن السكون الاخير حيم على شفتيها وهي تتمتم باسمي .

حين ترتفع الشمس فوق ذروة الجبل لا يبقى مكان للسر ، للعمق الهادىء الرزين ، لقد انفضح كل شيء . وتعالى الصراخ من المنزل . إذن فقد انتهى الامر ولم يبق إلا الصمت . اصمتوا يا أخوتي إذ لا مفعول للحياة في الموت . وارتميت على كومة حصيد القمح أدفن وجهي في الاصفر اليابس . ضجيج ، صراخ ، عويل ، وواهات في الفوضى الصاخبة وأصوات شنيعة . ماذا تندبون ؟ وعم تعبرون ؟ هذه الاشواق والكوامن العاطفية لم سكتم عنها اثناء الحياة ؟ ألا ما اقبحكم من جبناء في اعترافكم الحزين بعد موت الغالي . لقد كان في حياتها متسع لتقبلها رسائلكم الانسانية هذه . اما الآن ، كفى ، كفاكم قلباً لأجل ما في الحياة : الحب الحنون ، الى عويل يجرح الأحساس بآلام وسخة .

« انشائي » اكثر مما هو «روائي » وان روايته محشوة بالاغراق في وصف ما يستحسن بالاوصاف الجميلة وبالافراط ايضاً في وصف ما يستقبح بالاوصاف القبيحة . والفن الاصيل يكتفي – اجمالاً – بالتلميح دون التصريح ، وبالاشارة دون التفصيل . الا في مواقف معينة يختارها المؤلف بلباقة متناهية ليقول كلمته بقوة وايجاز .

في مسرحية « سيدة الموشحات » The Dark Lady of The Sonnets لجورج برناردشو يقول شكسبير للملكة اليزابت :

شكسبير : ان القوة التي احدث بها هي قوة الشعر الخالد . وبالرغم من شرور العالم ومن اننا لسنا الا حشرات ضعيفة ، فما عليك الا ان تلفعي مساوىء العالم بحلل سحرية من الكلمات الجميلة حتى ترفعي ارواحنا الى حالة من التجلي . فنتصور الارض قد غدت مليوناً من السموات .

اليزابت : انك تفسد جمال سمائك بهذا المليون . انك ذو غلو وافراط . الا تراعي حدوداً معينة في حديثك ؟

وها نحن نرى كيف ينطبق هذا القول على « مارس يحرق معداته » فان الافراط في التعابير الوصفية مما يفسد على القارىء متعة الاندماج في جو القصة ويحرمه مشاركة ابطالها في مشاعرهم واحاسيسهم .

ان من اول شروط القصة الناجحة قدرتها على تصوير الناس صوراً ادنى ما تكون الى واقع النفوس الانسانية . فكيف نطبق هذا الشرط في حالتنا هذه عندما نرى المؤلف يصور اهل جونو كلهم كأنما هم من الملائكة الاطهار ويصور لنا اهل مانيا كلهم كأنما هم زبانية الشياطين ؛ بينما نحن نعلم ان في كل انسان جوانب من الخير وجوانب من الشر ، واننا لا نستطيع مهما حاولنا ان نجد انساناً واحداً شراً كله ، او انساناً خيراً كله .

يقول الناعوري في مقدمته لروايته انها « عمل ادبي صغير » ، وانا اتقبل قوله هذا على علاته وامتدح فيه تواضعه . وارجو ان يستمد من تواضعه هذا عزماً متجدداً فيقدم لنا في المستقبل اعمالاً ادبية اكبر واكمل .

الاردن – المفرق

سليمان موسى

ورأسي في الاصفر اليابس ، انوح ، وخدر لذيذ كان يمر داخل عظام فكي. لذيذ كل هذا الهدوء الحار. كنت انوح صامتاً وكان نواحي موسيقى. لو ان هؤلاء ينوحون مثلي بهدوء حار ودموع مستعملة ويتركون لأسماعهم مجالاً تحس فيه رعشات القلب إذن لبقي لديهم مدخر من الانسانية يكفيهم لتذكر « الغالي » كل يوم ، وبتمتمة وجمال كموسيقى يومية مع الخبز . لن تنفع النصيحة ، إنهم يريدون أن يتخلصوا من كل ما تركه « الغالي » في قلوبهم من رعشات إنسانية دفعة واحدة وبقوة وعنف ، وهكذا يحصل العويل المؤذي. لن يدوم الامر اكثر من ثلاثة ايام ثم ينسى كل شيء، لقد اوفوا « الغالي » حقه . ولن يشيعوه من المنزل إلا بعد ان يدفنوا في نفس قبره ، وقبله ، كل حق عليهم . تجارة ، إذهب الى قبرك لا لك ولا عليك .

والخدر اللذيذ ما يزال يمر على فكي، لو ان هؤلاء يصمتون قليلاً إذن لاستمتعت بألم الفراق هذا ، كما ينوح حيوان في الغابة هادئاً ثابت النظرات مشلول الحركة في استكانة ، والى جانبه فقيده . تجارة ، ثم كانت الدفعة الاخيرة من دين الغالي عندما بدأ النعش يغادر باب المنزل، فتعالى عويل مفزع، مفزع جداً ، ربما كان هذا اقبح ما في لذة الموت. ودفعت برأسي الى داخل كومة حصيد القمح ، لا اريد ان اسمعكم. كان احرى بكم ان تقدموا وفاءكم هذا اثناء حياتها إذن لعاشت حياة مليئة كثيفة. ما اجمل تبذير عواطف الموت خلال الحياة .

سار الموكب وسرت هناك في المؤخرة وبين شفتي لفافة تدخن ، انظر الى قدمي كيف يسيران ، ومن جانبي سمعت مرافقاً يقول لرفيقه :

— إنها تبحث عن اولادها، ألا ترى كيف ان النعش لم يبق لحظة على اتجاه واحد ، اتراه كيف يتجه ذات اليمين ثم ذات الشمال، إنها تبحث عن اولادها

ورفعت الى النعش رأسي . لم لا اقترب منه ؟ ربما كانت تناديني من داخله ولكن انّى لها النداء. لو ان الميت يعود الى الحياة إذن لبنيت لها قصراً هو الجنة بعينها ولخضعت لها صباح مساء أسجد وأعترف بعواطف ما كان يجب ان نحرمها . من منا يقول لأمه : أحبك ... قال رفيق المرافق :

— وكيف تنادي ابناءها وهي جسد لا حراك فيه ؟ إن الميت يسمع ولكنه لا يتكلم .

— روحها يا صاحبي. روحها هي التي تطير فوقنا الآن وتغمر الموكب .

نظرت الى السماء . لا يوجد سوى الشمس وغبار الطريق الذي نعبره يغمر الموكب ، هل الروح من تراب ايضاً ؟ روح... ما هي الروح ؟ إن الله خلق الانسان ونحن خلقنا الروح . نحن الجبناء الوقحون. وبذلك قلبنا حقيقة العيش، سلبنا انفسنا مقومات الحياة ونحن احياء والبسنا انفسنا مقومات الحياة ونحن لا شيء . حين نصبح لا شيء، تراباً ، نكون «روحاً» حرة طليقة عنيفة في قدرتها، أليست هذه هي مقومات الحياة؟ ألا ما اضيع الانسان !

ما زال المؤذن ينادي في مقدمة الموكب «سبحان من خلق عباده للموت».

والرجال يحملون النعش صامتين . وهذا ما يفسح مجالاً للتفكير ، لمناقشة المشاعر الجمالية . كم هو الفرق شاسع بين رزانة هؤلاء وحمق النساء. الف شكر للتقاليد ، لا يسمح للنساء مشاركة الرجال في تشييع موكب الموت . دعوهن هناك في المنزل يتصارخن . انهن حمقى، ما زلت اذكر موقف خمس منهن يوم عادت امي من الحجاز مع ابي. سمعتهن ينشدن ويرتلن افراحهن لعودة «الحجي» سالماً ، الرجل . أما المرأة ، قريبتهن ، اخت اثنين منهن فلا حصة لها في الفرح ، إنها امرأة . إمرأة ، وقد يتزحزح الحذاء فوق كرسيه ، والجنازة تمر امام دكانه ، ويقول « رحمها الله » وكفى. او قد يقول لاجيره : إحمل مع الناس خطوات فقد يصيبك ثواب. امرأة، تجارة في حياة ، سامة اقتناها الرجل بين جدران اربعة وقد تلفت الآن، هذا كل ما في الامر . اذن لهذا انتم صامتون في مسيركم ايها الجبناء الوقحون ؟

حين وصلنا الحفرة الفاغرة ، ورُفع الغطاء، تقدم الشيخ ليقرأ. اسرعت :

— قف . لماذا تدفنونها ؟

— لأنها ميتة .

— ولكنها أمي ...

صمت الشيخ وكأن للمسألة وجهاً من الوجوه لا يمكن ان نعرفه أو ان نفكر فيه . ما زالت يداه ممدودتين ولم تصلا الجثة بعد، ولكن لا حركة فيها ، وهو ينظر اليّ . إنها أمي وكيف تقتطعها مني ؟ والى أين وكيف يكون ذلك وبأي شرع ؟ ورفعت بيدي غطاء الوجه ثم لمست فمها . ربما حدث هذا لأول مرة في حياتها . وضغطت جفنها إلى أعلى . إنها عين أمي بصفائها العجيب . ها هي بين يدي . ورفعت رأسي الى الناس الذين تجمعوا حولي ونظرت . ما زال موقف الشيخ مضحكا . ويظهر ان ارتجاف يدي عمل على إسقاط رماد لفافتي ... فوق وجهها. تقدم مني رجل اعرفه وقال :

— اذا كنت تحب عينيها فلا تتلفهما بالرماد ، رماد لفافتك .

قمت وانا ارى وجه الرجل الذي اعرفه ، على شكل خطوط . لم ألاحظ فيه وجهاً انسانياً ، بل كتلة عجيبة بخطوطها الجديدة . وكان على ظهري ثقل ، وافسحوا لي بينهم ممراً فسرت إلى قبر مجاور وأخذت ادخن.

وعزمت على امر ، لا بد ان يتركها الناس بعد دقائق . سيتركونها الى الابد ، وبعدها سينسون أن « في هذا المكان تكمن حقيقة » . وإلا فاين أحباء كل هذه القبور الاخرى ؟ لقد غمرها النسيان . لن أنسى ، وسأرجع كل مساء مع الاصيل أبلل ترابها بدموعي ، وسأشرب معها خمراً في الليالي المقمرة .

* * *

حين رجعت إلى بلدي بعد غياب بعيد وكدت أصل، لم أخبر ذوي بقدومي هذا . أردتها مفاجأة بعد فراق كله شوق جارف من شخص آخر ، لم يعبر عنها احد . والرسائل العديدة التي وصلتني من اخوتي ما كانت تذكر إلا كلمات جافة مخنوقة « وأمك تهديك ألف ألف سلام » . إنني اصدقها لو انها كتبت لي مرة واحدة تقول « ولدي ، أين انت مني الان . يا بعيد ، ما نسيتك لحظة . واحيانا أغص باللقمة حين اذكرك ونحن نأكل بدونك . ويهزني شوق عنيف اليك وأبكي كلما قرأ لي احد اخوتك رسالة لك . أشتهي أن أضمك يا حبيبي وأن أغرقك بقبلاتي . أشتهي .....» . ولكنها ما قالت هذا لأنه من غير اللائق في بلدي ان تقول امرأة مثل هذا ولو لولدها . على الأم ان تدرك مشاكل ابنها بالحدس وان ترسم له حلولاً وهي صامتة ، لا صراحة والصمت هو السبيل . والمرة الوحيدة التي حاولت بها امي ان تعبر عن حبها لي كانت حين افقت ذات مرة من نوبة الملاريا فرأيتها إلى جانبي راعبة وقالت: « ان وجهك يشبه زهر الدراق » . بحرقة لن انسى ذلك أبداً .

إن كانت هي لا تستطيع تحطيم القيد فلم لا احطمه انا ؟ وحين نزلت من السيارة ، وعلى كتف الحمال حقيبتي ، توجهت الى المنزل وعزمت على أن ... لم يبق إلا لحظات وبعدها سأقرع الباب . على جدار غرفة الجلوس عندنا ساعة كبيرة أقدم مني عمراً . سأسأل امي قبل كل شيء :

— كم الساعة الآن ؟ وستتفحص الساعة لحظة ثم تقول لي :

— « مفشخة » . على عادتها إذ انها لم تتعلم حتى الآن كيف تقرأ الزمن وسنضحك معاً، سأحملها بين ذراعي وسأعانقها بقوة، هذا الكائن الرحيم، وسأبلل صدرها بعد الضحك ، بدموع. سأحطم القيد واكسر الاخشاب النخرة.

قرعت الباب فخرج لي اخي الصغير ساهماً . لم يقل لي «الحمد لله على السلامة» سألته : ما بك يا كسار ؟

رمى نفسه بين ذراعي : لقد ماتت البارحة امي .

شريف الراس